روائع القصص العالمية

أحدب نوتردام

فيكتور هوغو

أكاديميا

روائع القصص العالمية

أحدب نوتردام

إعداد

ماغالي الحاج

أكاديميا
بيروت - لبنان

أحدب نوتردام

حقوق الطبعة العربية © أكاديميا إنترناشيونال، 2017
ISBN: 978-9953-37-940-1

جميع الحقوق محفوظة
All Rights Reserved

الناشر

أكاديـميا إنترناشيونال
فردان، شارع رشيد كرامي
بناية بنك بيبلوس، ط8
ص.ب 113-6669
بيروت 2140 1103 لبنان

Academia International
Verdun,Rashid Karameh St.
Byblos Bank Bldg., 8th Fl
P.O. Box 113-6669
Beirut 1103 2140 Lebanon

هاتف Tel. (+961 1) 800811 - 862905 - 800832
فاكس Fax (+961 1) 805478

بريد إلكتروني E-mail academia@dm.net.lb
info@kitabalarabi.com

www.academiainternational.com
www.kitabalarabi.com

أكاديميا هي العلامة التجارية لأكاديميا إنترناشيونال ش م ل
ACADEMIA is the Trade Mark of Academia International S.A.L.

المحتويات

المسرحيّة 4
كوازيمودو بابا المجانين 6
إنقاذ إزميرالدا 10
زواج غرانغوار 12
كوازيمودو قارع أجراس كنيسة نوتردام 16
معاقبة كوازيمودو 18
كلود فرولو يُفاجئ بزواج غرانغوار 20
غراميات النقيب فيبوس دي شاتوبيرز 24
محاكمة إزميرالدا 27
الكاهن المُتَخَفِّي يزور إزميرالدا 28
كوازيمودو ينقذ إزميرالدا 30
عذاب دوم كلود فرولو 33
الملجأ 34
دوم كلود فرولو في غرفة إزميرالدا 37
خطّة غرانغوار لإنقاذ إزميرالدا 38
العصيان 40
أوامر الملك 42
ومِنَ الحُبِّ ما قتل 45
لقاء الأُمِّ وابنتها 46
موت إزميرالدا 47
قدر كوازيمودو 48

المسرحيّة

في السادس من شهر يناير/كانون الثاني 1462، استيقظتْ باريس كُلُّها على أصواتِ أجراسِ كنائسِ المدينةِ والجامعة. إنّه عيدُ المجانين الذي يصادفُ أيضًا يومَ زواجِ ابنِ الملكِ لويس الحادي عَشر من أميرةٍ فلمنْكيّة. عمَّتِ الاحتفالاتُ الطُرُق والساحاتِ، وهُرِعَ الناسُ إلى ساحَةِ قصرِ العَدْلِ لِمشاهدةِ مسرحيةِ الأسرارِ المقدَّسة. كان يُفترض أن يَبْدأ العَرْضُ عِنْدَ الثانية عشرة ظهرًا لأنّ السُّفراء الفلمنكيّين المسؤولين عن زواجِ ابنِ لويس الحادي عَشر بالأميرةِ مارغريت سوف يَصِلون في ذلك الوقت. سمعتِ الجُموعُ دقّاتِ الساعةِ الاثنتي عشرة فراحت تَهْتِفُ وتَصْرُخُ لِلبَدْءِ بالمسرحية. انتظر الجميعُ بفارغِ الصبر لكن أحدًا لَمْ يظهرْ عَلى خشبةِ المَسْرَح.

صَرخ رجلٌ: «فَلْيبدأ العرضُ الآن! وإلاَّ سوف نَشنُقُ مأمور المَحْكَمةِ ونُلقّنكم دَرْسًا!»

تقدَّمتِ الجموعُ مُهدِّدةً متوعِّدة، فارتَجَفَ المُنظّمون الواقفون قُرْبَ المِنصّة. عِنْدَها، أمَرَ مُؤلِّفُ المَسْرحيّة، بيار غرانغوار، المُمثّلين بالْبدْءِ. كانَ غرانغوار رَجُلاً نحيلاً طَويل القامة، ذا وَجْهٍ بَشُوشٍ وحاجِبَيْنِ مُجعَّدَيْن.

بدأ العرْضُ فَهدأ النَّاسُ. فجْأةً، قاطَعَ المُمثّلينَ مُتسوّلٌ يطْلُبُ صَدقةً، لكنَّهُم لمْ يأبهوا لَهُ. في هذهِ الأثْناء، وصَلَ كاردينال بوربون معَ السُّفراءِ الفلمنكيّين وقدِ ارْتدَوا أزياءً مُطرَّزةً بألوانٍ زاهية. جذبَتِ الأزياءُ انتباه الجُموعِ فنَسَوا المسرحيّة.

انزعج بيار غرانغوار وراح يُنادي الجمهورَ بأعلى صوْتِه ليعودوا إلى مُشاهدة العَرض. غير أنّ الجميع كانَ قدْ فقَد تركيزَه. فَجْأةً، اقترحَ رَجُلٌ البَدْءَ بانتخابِ بابا المجانين، فوافقَ الجُمْهُورُ وبدأت عملية الانتخاب. كان يُفترض أن يكونَ لبابا المجانين أبشعُ وجه على الإطلاق.

راح الجَمْعُ يَصْرُخُ ويصيحُ إلى أنْ ظهَر بابا المجانين. كانَ أنفُهُ مُربَّع الشَّكْلِ وفمُهُ كحِدْوَةِ الفرس، أمّا حاجِبُهُ فكانَ أحْمرَ مُبعْثرًا فوْق عَيْنِه اليُسْرى، فيما يُغطّي ثؤلولٌ كبيرٌ عَيْنه اليُمْنى. أمّا أسْنانُه فكانتْ مِعْوَجَّةً وشَفتاه باردتَيْنِ وذقْنُهُ مَشْقوقًا. وكانتْ قدَماهُ ضَخْمتَيْنِ، وكانَ أصمَّ لا يَسْمع.

إنّه كوازيمودو، الذي يُعرف بالأحدب، قارِعُ أجراسِ كاتدرائية نوتردام. لقد أصبح بابا المجانين. جَلسَ على عربة قُمامة وجال بِهِ الرِّجالُ في أنحاءِ المدينة وسار وراءه الحشدُ كلّه.

كوازيمودو بابا المجانين

في خلالِ تطوافِ مَوْكب بابا المجانين، شعرَ بيار غرانغوار بالإحباط، فَمُغامرته التي كان يُعوِّل عليها من خلال مسرحيَّته اللامعة قد باءت للأسف بالفشل. وَلَمْ يَتقاضَ أَجْرَه بحجَّة أنَّ العرضَ لم يُقدّم كاملاً. «إذا دَفَعوا لي، حَصَلْتُم على مالِكم!» قالَ بيار للمُمثّلين قَبْلَ أن يَنْصَرِفَ. وَبِما أنَّ لا مالَ لديه ولا مأوى ينام فيه، تَوَجَّهَ إلى ساحةِ 'غريف' حَيْثُ أوقِدَت نار كبيرة. في تلك الساحةِ، كانَت تَتِمُّ أيضًا عمليّاتُ التعذيب والإعدام.

شقَّ غرانغوار طريقَه بَين الجُموعِ وهو مُبَلَّل بالماء وَيرتجف مِنَ البَرْدِ.

«أيُّها الباريسيّون، أنتم تَعوقون طريقي إلى النّار! تنحّوا جانبًا! إلى ماذا تَنظرون؟»

كانَت هناك فَتاةٌ غجريَّة في السادسةِ عَشر مِن عُمْرِها تَرقُصُ في الساحَةِ الكبيرة حَوْلَ النّارِ. انبهَرَ بيار لدى رؤيتِها وهي تَتحرَّكُ بِسُرْعَةٍ وتساءَلَ في نَفْسِهِ إنْ كانَتْ جِنِّيَّةً أم مَلاكًا. كانَ جسمُها المَمْشُوقُ يتَّقدُ بالإثارةِ. وكانت قَدَماها الرقيقتانِ تَتَنقّلانِ بِخِفَّةٍ ورَشاقَةٍ فَوْقَ بِساطٍ فارسيٍّ قَديم. وَمَعَ كلِّ دَوْرةٍ، كانَتْ أَلْسِنَةُ النّارِ تنعكسُ عَلى وَجْهِها فَتُومِضُ عَيْناها كَوَميضِ البَرْقِ في لَيْلِ السَّماءِ المُكْفَهِرّة. إنّها إزميرالدا...

أخيرًا، توقَّفَتْ إزميرالدا عَنِ الرّقْصِ ونادَت عَنْزَتَها الصَغيرَة، دجالي. كانَتِ العَنْزَةُ مِثْلُ صاحِبَتِها رَقيقةً ناعِمَةً تَتَلألأُ حَوافِرُها وقُرونُها بألوانِ الذَّهبِ. كانَ الجَمْعُ مسرورًا جدًّا بِهَذِهِ العَنْزَةِ الصَّغيرَةِ، التي كانَتْ مُدرَّبةً على الإخبارِ بالوَقْتِ وتَرْكِ وَقْعٍ مُؤثِّرٍ في النَّاسِ بِتَوْجيهِ مِنْ صَاحِبَتِها الغَجَريَّةِ الحَسْناءِ. لَكِنْ يبدو أَنَّ رَجُلاً أَصْلَعَ يَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ نَحْوَ خَمْسَةٍ وثلاثينَ عامًا لَمْ يَكُنْ يَسْتَمْتِعُ بالأداءِ. فراحَ يَنعَتُ الفتاةَ بِكلماتٍ مُشينَةٍ ويَصيحُ: «هُناكَ سِحْرٌ وشَعْوَذَةٌ وراءَ كُلِّ هَذا الّذي يَحْدُثُ!»

قطَّبت الفتاةُ حاجبيها عِنْدَ سماعِها تِلْكَ المُلاحَظةِ فاستدارَت تُحَيّي الجُمْهورَ الذي كان يُصفّقُ لها. تنقَّلَتْ بيْنَ النَّاسِ تجْمعُ المال، ثمَّ توقَّفَتْ أمام غرانغوار، الذي أخذَ يتظاهرُ بالبحْثِ عنْ نُقودٍ في جُيوبِهِ الفارغةِ. فجأةً، عَلا صوْتُ امرأةٍ تصيحُ: «اذهبي مِنْ هنا أيَّتُها الحشرةُ البَغيضةُ!»

كان هذا الصوتُ يعودُ إلى راهبةٍ ناسكةٍ يستر جِسْمها ثَوْبٌ من قُماشِ الخيْشِ. كانَتْ هذهِ الرَّاهبةُ تعيشُ في برجِ رولاند. ففي تِلكَ الحقبةِ، كان مِن الشَّائعِ أنْ تجِد في وسَطِ المُدُنِ المُزْدحِمةِ غُرفًا مُسوَّرة مِنْ دونِ أبواب، ينْعزِلُ فيها بعْضُ النَّاسِ لسنواتٍ، إما للتَّنسُّكِ والعِبادةِ أو حُزْنًا وأسًى لمصيبة ألمَّتْ بهم في الماضي. وكانوا يَعيشون على حسَناتِ المارّين الذين يتْرُكون لَهم شيئًا من الطّعامِ أمامَ نوافذِ الغُرفِ. وكانَتْ هذهِ الرَّاهبةُ الناسكةُ واحدةً مِنْ هؤلاءِ.

اضْطرَبتِ الغجريَّةُ قليلاً عِنْدَ سماعِها كلامَ النَّاسِكةِ، فابْتعدَتْ وراحَتْ تُغنّي بِصوْتٍ رائعٍ رَخيمٍ.

كانتِ الأُغْنيةُ ناعِمةً ساحِرةً تُدْخِلُ الفرح والبهْجَةَ إلى قُلوبِ سامِعيها، ما جذَبَ غرانغوار فنسيَ ألَمهُ.

لكِنَّ صُراخَ الرَّاهبةِ ذاتِ الصَّوْتِ الأجشِّ ظلَّ يطْغى على صَوْتِ إزميرالدا. وفي تِلك اللحظةِ، وصل مَوْكِبُ بابا المجانين، المُضاءُ بالمصابيحِ والمصْحُوبُ بالموسيقى.

كان كوازيمودو يسْتمتعُ بِجُلوسِهِ فوْقَ عرَبةِ القُمامَةِ، ولَمْ يتأثَّرْ بصياحِ النَّاسِ السَّاخِرِ والمُهينِ. فَهُو كانَ يَعْرِفُ أنَّ الناس يكْرَهونَه ويَخافون مِنْه. ومَعَ ذلِك، بَقِيَ فرِحًا يشِعُّ وجْهُهُ المُشوَّهُ القاسي بالنُّورِ والسَّعادَةِ.

فجْأةً، ظهر الرَّجُلُ الأصْلعُ مرَّةً ثانيةً واعْترَضَ سيْرَ المَوْكِبِ. وعِنْدَما شاهَدَهُ كوازيمودو، قفزَ مِن العَرَبةِ وانْحنى إجْلالاً له. عرَف غرانغوار الرَّجُل. إنَّه دوم كلود فرولو، رَئيسُ الشَّمامِسةِ في كاتِدرائيَّةِ نوتردام.

وبِدونِ أنْ يلفُظَ كَلِمةً واحدةً، ركَعَ كوازيمودو أمامَ رئيسِ الشَّمامِسةِ وكأنَّهُ يَطْلُبُ مِنْهُ السَّماحَ. فأشارَ له دوم كلود فرولو أنْ يتبعهُ. ثُمَّ اختفى الاثنانِ في شارِعٍ ضَيِّقٍ ومُظْلِمٍ.

إنقاذ إزميرالدا

رُغْمَ ذُهولِ غرانغوار بِسِحْرِ العَرْضِ الذي قدَّمته إزميرالدا، إلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَنْسَ جُوعَهُ الشَّديد للطَّعام. أشاح بِنظرِه عن فرولو وكوازيمودو لِيَتْبَعَ الغَجَريّة الحسْناء. قرَّرَ أنْ يلْحق بها، آملاً أن تُقدِّمَ إليه بَعْضَ الطَّعامِ ومكانًا يَبيتُ فيه لَيْلتهُ. تبعها، فأسْرعَتْ خُطاها.

كانَ اللَّيْلُ قدْ بدأ يُرْخي بِظلالِه. أقفرَتِ الشوارعُ منَ النَّاسِ. سَمِعَ غرانغوار الفَتاةَ تصْرُخُ وتطْلُبُ النَّجْدةَ. كانَ هُناك شَخْصانِ يُحاولانِ خطْفها، أحدُهما كوازيمودو. حاوَلَ غرانغوار أنْ يُساعِدَها لَكِنَّ الأحْدَبَ دفعهُ بِقُوَّةٍ وأوْقَعهُ على الرَّصيفِ، فَفقدَ وعْيَهُ.

أمْسكَ كوازيمودو بالغجريَّةِ فيما كانتْ تصْرُخُ: «مُجرِمون.. مُجرِمون»، ودَفعَها نَحْو زُقاقٍ مُظْلِمٍ.

في هذِهِ اللَّحْظةِ، كانَ يمُرُّ بالصُدْفةِ نقيبٌ في سِلاحِ الرُّماةِ التَّابِعِ مُباشرةً للملك على رأْسِ دوْريّةٍ، فسَمِعَ صُراخها. فهرع إلى المكان وخلَّصَ الفتاة مِنْ بيْنِ ذراعي كوازيمودو. قاوم كوازيمودو الجنودَ بضَراوةٍ لكِنْ في النِّهاية أمْسكوا به. أمّا رَفيقُهُ فقدْ توارى عنِ الأنْظارِ.

أمْعَنتِ الحسْناءُ الغجريّةُ النَّظرَ في وجْهِ مُنْقِذِها النَّقيبِ ثُمَّ سألتْه بنعومةٍ عن اسْمِه. وفيما كان يُجيبُها: «النقيب فيبوس دي شاتوبيرز»، كانتْ قدْ تسلَّلتْ وتوارتْ داخِلَ الأزِقَّةِ والحارات.

قيَّدَ الجنودُ يدي كوازيمودو بالسَّلاسل واقتادوه إلى السِّجْنِ.

زواج غرانغوار

حين اسْتعادَ غرانغوار وعيهُ، وَجد نَفْسهُ مَرْميًّا على الرصيف. وقفَ وسارَ على غيْرِ هُدىً في أحدِ الأزقَّةِ الضَّيِّقةِ. وبِلمحِ البصَرِ، تجمَّعَ حولَه الشحّاذون. ارتعب وراح يركضُ فتبعوه وأمْسكوا به. نظرَ حولَه وعَرفَ أنّه بات في مَعْقِلِ اللُّصوصِ والمُجْرمين والمُتسوّلين.

تكشَّفَ لهُ عالمٌ جديدٌ. عالمٌ مَجْهولٌ لَمْ يرَ مِثْلَهُ مِنْ قبْلُ. عالمٌ مُشوَّهٌ مُرْعِبٌ شديدُ الغرابة.

سألَ غرانغوار نفسَه: «إذا كنتُ موجودًا، فهل هذا موْجودٌ؟ وإذا كانَ هذا موْجودًا، أيمكن أنا أنْ أكونَ مَوْجودًا؟»

ثُمَّ سَمِعَ صوتًا خَلْفَهُ يَقولُ: «فلْنأخُذْه إلى المَلِك!»

شاهدَ نارًا كَبيرةً تَشْتَعِلُ فوقَ حِجارةِ الرَّصيفِ. وكانَ هُناك أشْخاصٌ يجْلِسونَ إلى طاولةِ طَعامٍ يأكلونَ ويَشْرَبونَ. وبالقُرْبِ مِنَ النّارِ المُشْتَعِلةِ، كانَ مَلِكُ اللُّصوصِ جالِسًا فَوْقَ بِرْميل. سألَ الرَّجُلُ: «مَنْ هَذا المِسْخُ؟» عِنْدَئذٍ عَرفَ غرانغوار أنَّهُ في حَضْرَةِ مَلِكِ اللُّصوصِ كلوبان ترويفو الَّذي أفْسَدَ مَسرحِيّتَهُ في الصَّباحِ حينَ كانَ يتَسَوَّلُ.

«أجِبْ بِسُرْعة! ماذا تقولُ لِتبرئةِ نفسِك؟» سألَ مَلِكُ اللُّصوص.

«أنا كاتِبُ المَسْرحيّةِ الَّتي عُرِضتْ هَذا الصَّباح،» أجابَ غرانغوار.

فصاحَ كلوبان: «إذن، أنْت لَسْتَ واحِدًا مِنّا. نَحْنُ الآن قُضاتُك. لقد دخلْت شارِعَنا وأنتَ لَسْت مِنّا. سوفَ نَشْنُقُك!».

نَظر كلوبان إلى تعابير غرانغوار المُثيرة لِلشَّفقة ثُمّ فكّر وقال: «لكنْ لدينا تَقْليدٌ يقولُ إذا رغبت امرأةٌ مِنّا أنْ تتزوّج بك، فيمكنُ عِنْدها أنْ نُطلقَ سراحَك.»

تَقدَّمَتْ ثلاثُ نساءٍ وحدّقْنَ بغرانغوار لكِنْ لمْ يَقْبَلْنَ بِهِ. وفي اللَّحْظةِ الَّتي كاد فيها أنْ يَفقِدَ الأمَلَ، وصَلتْ إزميرالدا. وافقتْ إزميرالدا عَلى الزَّواجِ به، ثُمَّ رمَت وِعاءً مِن الفَخّارِ على الأرْضِ فانكسَر إلى أرْبعِ قِطَعٍ، ما يعني حسَبَ مُعْتَقَدِ الغجرِ أنّ الزَّواج سيدومُ أرْبعَ سِنين.

بعدَ دقائق قليلةٍ، وجدَ غرانغوار نَفْسَه مَعَ إزميرالدا في غُرْفةٍ دافِئةٍ ومُريحةٍ. كانت إزميرالدا تَحملُ خَنجرًا لِتَمْنَعَهُ مِن الاقْترابِ مِنْها.

«تزوَّجْتِ بي كَي تُنقِذيني مِنَ الإعدامِ؟» سألَ غرانغوار.

«هلْ هُناكَ سببٌ آخرَ برأيك؟» ردَّت إزميرالدا.

«أشكُرك»، أجابَ غرانغوار. «وأَعِدُك بِعَدَمِ الاقترابِ مِنْك مِن دُونِ إذنِك. والآنَ، أيُمكنُ أنْ أحصُلَ عَلى بَعْضِ الطَّعام؟»

ابتسمتْ إزميرالدا ووَضَعتِ الخَنْجَرَ جانِبًا، ثُمَّ جلبَتْ لَهُ طعامًا فأخذَ يأكُلُهُ بِشراهةٍ، فيما جلستْ هي غارِقةً في أفْكارِها.

«بِماذا تُفكِّرين، يا آنستي؟»

استفاقتْ إزميرالدا مِنْ أحلامِها وهتفتْ: «ماذا...؟»

« ألا تُريدينني زَوْجًا لَكِ؟» أضافَ غرانغوار.

فأجابت: «لا!»

ثُمَّ اسْترْسَلَ مُسْتَفْهِمًا: «ولا حتَّى صديقًا؟

«رُبَّما. تُرى ما مَعْنى «فيبوس»؟ سألتْ إزميرالدا.

«الشَّمْس. لكن لِماذا أسْموك إزميرالدا؟

«لا أعْرِفُ. رُبّما بِسَبَبِ هذا.» قالَتْ إزميرالدا وهِي تسْحبُ كيسًا حريريًّا أخْضَر اللَّوْنِ وقِطْعةً مِن الزُّجاجِ الأخْضَرِ مُعَلّقةً في وسطِه كأنَّها حجَرٌ مِن الزُّمُرُّدِ.

ثُمّ أكملتْ قائلةً: «لا أعْرِفُ اسمك!»

فأجابَها: «بيار غرانغوار.»

أخيرًا، ارتاح كلٌّ مِنْهُما للآخَرِ. وراحتْ إزميرالدا تُحدِّثُهُ عنْ رجُلِ أحْلامِها القويِّ والوَسيمِ الذي أنْقذها. سألَها بيار عَنْ سَبَبِ مُلاحقةِ كوازيمودو لها، لكن لم يكُنْ لديْها أدْنى فِكْرة. ثُمَّ أخْبرها أنَّهُ فقَدَ أهلَه حين كانَ في السادسةِ وعاشَ وترعْرَع في أزقَّةِ وشَوارعِ باريس وأنَّ صداقةً تَرْبطُهُ بفرولو الذي علَّمهُ وثقّفهُ.

بعدَ قليلٍ، خرجت إزميرالدا مِن الغُرْفةِ فيما غفا غرانغوار مِنْ شِدَّةِ تعبِه على صُندوقٍ خشبيّ.

كوازيمودو قارع أجراس كنيسة نوتردام

قبلَ ستَّة عَشرَ عامًا، في يوم «أحد كوازيمودو»، وهو أوّل أحدٍ بعد عيدِ الفصح، عُثِر على طِفْلٍ بَشِعٍ مُشوَّه موْضوعٍ في مهْدٍ خشبيٍّ أمامَ كاتدرائية نوتردام. يوْمَها تجمَّع النَّاسُ حوْلَ هذا الطفل هازئين وخائفين، في حين راحَ كاهِنٌ شابٌّ عريضُ الجبين، صارِمُ الوجْهِ، يُراقبُ المشْهَد.

«سأتبنّى هذا الطِّفْلَ!» صاحَ الكاهِنُ.

كانَ هذا هُوَ السيّد كلود فرولو الذي نَذر نفْسَهُ للكهنوتِ منذُ صِغرِه وصار رجُلاً جدّيًّا وعالمًا شديد الحماسَة. تُوفّي أهلُ كلود في عام 1466 بمرضِ الطّاعُونِ وأمْسَى الرَّجُلُ الشابُّ وصِيًّا على أخيه الأصْغرِ جيهان.

في العِشْرينَ مِنْ عُمْرِه، أصْبَح كلود أصْغَرَ كاهِنٍ في كنيسةِ نوتردام. كان صارمًا جدًّا مع النِّساء، لا يَقْتربُ مِنْهنّ ويَنْفِرُ خُصوصًا مِن الغجريَّاتِ والبُوهيميّات. وكان حتَّى يَرفُضُ وُجُودهنّ قُرْبَ الكاتدرائية، وقد عبّر مَرَّةً عن ذلك في رِسالةٍ إلى راعِي الأبْرَشية.

أطْلقَ كلود فرولو اسم «كوازيمودو» على الصّبيّ المُشوّه، لأنّهُ عثَر عليه يوْمَ «أحدِ كوازيمودو».

اعتبر كوازيمودو كنيسة نوتردام بيته. وأصبحَ جُزءًا لا يتجزّأُ مِنها. وكانَ يعيشُ فيها كما تعيشُ السُّلَحْفاةُ في دَرقتِها. وقد تعاظم حبُّهُ لأجْراسِ الكنيسةِ حتَّى سمّاهُ كلود فرولو، والدُهُ بالتَّبنّي، «قارِعُ الأجْراس».

وللأسف، بعد بِضْعِ سَنواتٍ، مَزَّقتْ أصْواتُ الأجْراسِ طبْلتيْ أُذنيه، ففقدَ سمْعَه وخسر بالتّالي مَصْدر فرحِهِ الوحيد. وسُرعانَ ما أصْبحَ عاجزًا عنِ الكلامِ وأمسَى صوْتُهُ أجَشَّ غير مَفْهوم، وراحَتِ الأفكارُ المُشوَّهة تُعشِّشُ في رأسِه. ومنذُ ذلك الحين، صار مِن الصَّعْبِ عليه تمييزُ ما يراهُ، فأصبح شخْصًا هَمجيًّا بشِعًا يَحْقِدُ على النَّاسِ.

وعلى الرُّغْمِ مِنْ خسارتِه لِسمْعِه، بَقِيَ كوازيمودو يُحِبُّ أجْراسَ الكاتدرائيةِ الخمْسَة عشر حُبًّا جمًّا.

وكانَ لا يزالُ يُمْكِنُه سماعُ جرسِه المُفضّل، بيغ ماري، ويشعرُ بشيءٍ مِنَ الغِبْطةِ والسَّعادةِ لدى سماعِه.

غيرَ أنّ حُبَّهُ لكلود فرولو كانَ أعظمَ بِكَثيرٍ من حُبِّه للكاتدرائية ولأجراسِها. فكلود هو الذي رَفع شأنهُ حينَما مَنَحهُ شَرَفَ قَرْعِ الأجْراسِ.

كانَ كوازيمودو يَكُنُّ كُلَّ الحبِّ والتقديرِ لِمعلّمِهِ وأبيه، وكان وفيًّا له كَوفاءِ الكَلْبِ لِصاحِبِه.

مُعاقبة كوازيمودو

بالعودة إلى الحاضر، رأينا كوازيمودو يُقْتادُ إلى السِّجْنِ ويُعاقَبُ بالجلْدِ أمامَ النَّاسِ.

على مَقْرُبةٍ من المكانِ، كانتْ هُناك ثلاثُ نِسْوةٍ يَحْمِلْنَ كعْكةً مُحَضَّرةً مِنْ حُبوبِ الذُّرةِ الصَّفْراءِ للأُخْتِ غودول، وهي ناسكةٌ تعيش كما ذكرْنا سابقًا في غُرفةٍ صغيرةٍ في برجِ رولان أو ما يُعرف بِحُفْرَةِ الجُرْذان، التي لَيْس لها سِوى نافِذَةٍ صغيرةٍ وبدون أيِّ باب.

وصلتِ النِّساءُ الثَّلاثُ إلى أحَدِ الجُسورِ فرأين في نهايَتِهِ حَشْدًا مِنَ النَّاسِ، كما سمِعْن قرْعَ طُبولٍ. إنَّها إزميرالدا وعَنْزَتُها. عِنْد رُؤيةِ هذه الغجريّة، تذكَّرتْ ماهييت، وهي إحدى النِّسْوةِ الثَّلاث، قِصّة باكيت لاشانترفلوري، التي تكرهُ الغَجريات أشَدَّ الكُرْهِ لأنَّهُنَّ خطفْنَ ابنَتَها آنياس قبلَ سَنواتٍ عَديدة. لم يبْقَ من آنياس سِوى فَرْدَةِ حذاءٍ زهْريّةٍ مُزرْكشة. لَمْ تعثرْ باكيت على ابنتها آنياس لكنّها وجدَت في سريرِها طِفْلاً مُشوّهًا أعْرجَ، بِعَينٍ واحدة. بعدَ هذه الحادثة، اختفَتْ باكيت ووُضِع الطفلُ المُشوَّهُ في مَيْتمِ الكَنيسة.

حين وَصلتِ النِّسْوَةُ إلى «حُفْرةِ الجُرْذانِ»، نَظَرْنَ عَبْرَ النافذةِ الصغيرة. رأَتْ ماهييت فَرْدَةَ حِذاءٍ صغيرةً زهريَّةَ اللَّونِ: إذَنْ الأُختُ غودول ما هي إلا السيِّدة باكيت لا شانترفلوري التي فَقَدَتْ اِبْنَتَها!

كانت باكيت شاحِبة اللَّون، ترتدي ثوْبًا فضْفاضًا من الخَيشِ. شَعْرُها الرَّماديُّ يُغطّي وجهَها، وعيناها لا تفارقان أبدًا فرْدَةَ الحِذاءِ الزَّهْريِّ. وفي ساحةِ «غريف»، في الجِهَةِ المُقابِلَة، تجمَّعَ حَشْدٌ من الناس. وصَلَ كوازيمودو إلى الساحة مُقيّدًا دُونَ أنْ يُبدِيَ أيَّةَ مُقاوَمة.

أغْلَقَ كوازيمودو عَيْنَيْهِ حينما بَدأ السُّوطُ يَنْهالُ عَلى ظَهْرِه. بعدَ فترة توقَّفَتْ عمليَّةُ الجلْدِ. كانَ ظَهْرُه ينزفُ بشدّة، ورغم ذلك كانتِ الجُموعُ حَوْلَهُ تشتمُه وتَرجمه بالحجارة. رآه الكاهِنُ مِنْ بعيدٍ لكنَّهُ ابْتَعَدَ عَنِ الأنظارِ بِسُرْعَة. أمّا كوازيمودو الذي كانَ ينتَظِرُ من فرولو أن ينقذه، فقد كانَ حَزينًا يائِسًا مُنْهَكَ القُوَى.

تُرِك كوازيمودو في مكانِهِ طويلاً. في النهايةِ لَفَظَ كَلِمةَ: «ماء!»

مرَّتْ لَحَظاتٌ لَمْ يقتربْ أحَدٌ مِنْهُ. ثُمّ جاءتِ امرأةٌ ومعها عنزةٌ بيضاءُ. إنّها إزميرالدا. ظنَّ أنّها أتتْ أيْضًا لِتهْزأَ مِنْهُ. لكِنَّها قدَّمَتْ إليهِ شُرْبَةَ ماء. حاوَلَ أنْ يُقبِّل يدها شاكِرًا لكنّها سَحَبَتْها بِسُرعةٍ وجِسْمُها يَرْتَعِشُ مِنَ الخَوْفِ والشَّفَقة. حَزِنَ كوازيمودو لكنّه مُنْذُ تِلْك اللَّحْظةِ باتَ مُغْرَمًا بِها.

كلود فرولو يُفاجِئ بزواج غرانغوار

في يومٍ ربيعيّ جميلٍ من شهر آذار/مارس، كانت فلور دو لي دو غوندلورييه، وهي فَتاةٌ غَنِيَّةٌ ورثت ثروة طائِلَةً عن أهلها، تَجْلِسُ مع صَديقاتِها في شرفة منزِلِها وهُنَّ يتحادثن ويتمتّعْنَ بمنظرِ كاتدرائيةِ نوتردام.

كان خطيبُ الوريثةِ الغنية النقيب فيبوس دو شاتوبيرس يشاركهُنَّ الجلسةَ، لكنه كان يشعرُ بالمَلَلِ والضيقِ، ويتمنّى لو كان في مكانٍ آخر. فهو رَجُلٌ عَسْكَرِيٌّ لا يحبّ هذا النوع من الأحاديث، إضافة إلى أنه لا يكنّ لخطيبتِه أيَّةَ مشاعِر. وفيما هو يتساءلُ كيف عساهُ يهرب من هذا المجلسِ المُمِلّ، سمعوا صوتَ موسيقى وجَلْجَلَة.

ركضَت ابنة فلور بالمَعْموديَّةِ لتُلقيَ نظرةً مِنْ بين قضبانِ شُرْفةِ المنزل ثم قالت: «آه انظروا! راقصةٌ جميلةٌ مع عنزتِها... انظروا أيضًا إلى برجِ الكاتدرائية، هناك كاهِنٌ ينظرُ إليها!». فقالَتْ إحدى الفتيات: «إنّه رئيس الشمامسة فرولّو، حَريّ بالغَجَريَّة أن تتوخّى الحذرَ، يُقال إنّه يكرهُ الغَجَرَ!»

هُنا تساءلت فلور: «آه، هل تعتقد أن تكون هذه الفتاة هي نفسها التي أنقذتها قبل بضعة أشهرٍ أيها النقيب؟ فلنأتِ بها إلى هنا كي تسلّينا!»

سُرعانَ ما نُفِّذَ طلبُ الوريثة. وحين دخلَت إزميرالدا ورأت فيبوس أمامها، تسمّرَت في مكانِها واحمرّت وَجْنتاها خجلاً.

قالَ لها فيبوس: «اقتربي. هل عرفتني؟»

أجابت بخجلٍ: «نعم.»

عندما لاحظَتِ النساءُ جَمالَ إزميرالدا وجاذبيتَها الآسِرَة وأدْرَكْنَ أنّ النقيبَ كان يُحدّقُ بها بإعجاب، رحن يسخرْن من فستانِها ومن مظهرِها الرّثّ.

قالَت إحداهن مستهزئةً: «يا لَهُ من ثَوْبٍ بدائيٍّ.»

ورُغْمِ خجَلِها وارتباكِها الشديدَيْنِ، استمرَّت إزميرالدا ترْمُقُ فيبوس بِنَظْرةٍ عَذْبةٍ حَزينة، رغم كُلِّ هذا التَّهكُّم.

في هذا الوقت، كانتِ الطفلةُ تلعبُ مع العنزةِ. وفجأة صاحَت: «انظري يا عرّابتي، انظري ماذا فَعَلتِ العنْزةُ!»

شحَبَ لَوْنُ فلور حينما رأتِ العنزة قد رتّبت حروفًا خشبيةً على الأرضِ لتشكّلَ كلمة: «فيبوس». لمّا رأت إزميرالدا ما قامت به العَنْزَةُ، أدركتْ أنّ أمرها قد انْفَضحَ، فجمعَتِ الأحرف بِلَمْحِ البَصَرِ وأشارَت إلى «دجالي» أن تلحَق بِها ثُمَّ أسرعَت بالانصراف. وبَعْدَ دقائِق قليلة لحق بها النقيب فيبوس.

كان الكاهن كلود فرولّو يراقبُ الغجريةَ من غرفتِه بقلقٍ. فقد رأى إزميرالدا برفقة رجلٍ غَريبٍ. فقرّر أن ينزلَ ليستعلمَ عنه. وفيما هو يعبر البابَ، لفت انتباهَه مشهدٌ آخر: فقد شاهد كوازيمودو ينظرُ إليه نظرة حزينة.

تجاهل فرولّو نظرة كوازيمودو وسارعَ بالنزول إلى الشارع. لم يجدْ إزميرالدا، التي كانت قد دخلت إلى منزلِ فلور دو لي دو غوندلورييه. ورأى عِوَضاً عنها الشَّخْصَ الغريبَ الذي كان برفقتها، وتفاجأ حين أدرك أنّه الكاتب بيار غرينغوار. أشارَ فرولّو إلى غرينغوار أن يلحق به إلى الكنيسة. وهناكَ أخبرهُ غرينغوار بِكلّ ما جَرَى معه بما في ذلك زواجه من إزميرالدا.

امْتَقعَ لَوْنُ وَجْهِ رَئيسِ الشَّمامِسَة لدى سَماعِه هذا الخبر، غير أنّه اطمأنّ حِينَ عَلِمَ أنّهما يَعيشانِ معًا كالأخوةِ وأن إزميرالدا لا تسمحُ لأيّ رَجُلٍ بالاقْترابِ منها. كذلك أخبره غرينغوار أنّها مَفْتونَةٌ بِشَخْصٍ اسمهُ «فيبوس». اوتاحَ كلود فرولّو لحصوله على تلك المعلومات.

غراميات النقيب فيبوس دي شاتوبيرز

في صباحِ يوْمٍ مِن الشَّهْرِ ذاتِهِ، استيقظَ جيهان فرولو واكتشفَ أنّه خسِر جميع أموالِهِ على طاولةِ القِمار. قرّر التوجُّه إلى نوتردام ليطْلُب بَعْض المالِ مِنْ أخيهِ كلود فرولو، رئيسِ الشَّمامسَة. لكنَّ طلبه رُفِض. كان كلود مُنْزَعِجًا مِنْ سماعِ قِصَصِ أخيه جيهان الذي يقضي أوقاته بالعِراك والقمار والشُّرب بَدل العمَلِ والدراسة. بدا كلود فرولو مُستعجلاً وطلب من جيهان الاختباء. أخبره أنّ زائرًا مُهمًّا سيأتي إليه بعد قليلٍ. وحين خرج الزائر مع كلود فرولو، سرق جيهان بعْض المالِ من حقيبة أخيه وانصرف.

وعندما أصْبَح خارجَ الكنيسة، لحِق بأخيه والزائر. كان متشوّقًا ليعرِفَ ما يدور بينهما. وفيما هو يُسْرِعُ الخُطى باتِّجاهِهما، التقى بالنقيب فيبوس الذي كان مخمورًا.

«ماذا؟ فيبوس؟ أهذا أنت؟» هتف جيهان.

حينَ سمع الكاهن اسم «فيبوس» استدارَ عائدًا بعد أن ودَّع زائرهُ ولحِق بفيبوس وشقيقه. كان فيبوس يتباهى أمامَ جيهان أنّهُ سيلتقي الليلة بإزميرالدا. حينما سمِع الكاهِنُ ما قالهُ فيبوس اغتاظَ غَيْظًا شديدًا. في ذلك الوقتِ، دخل فيبوس وجيهان إلى حانةٍ فيما انتظرهما الكاهِنُ في الخارِجِ، وهو يرتدي مِعْطفًا سميكًا يغطّي جِسْمهُ كُلَّهُ.

لا شكَّ أنّه اشترى المِعْطف في وقت سابق لاتّقاءِ بَرْدِ ليالي شهْرِ آذار/مارس، وقد يكونُ أرادَ أيضًا أن يغطّيَ زِيَّهُ كي لا يَعْرِفَهُ أحَدٌ. وبعد فترة خرج الرَّجُلانِ مِنَ الحانةِ، فتبِعهما. فقَدَ جيهان وعْيَهُ مِنْ شِدَّةِ السُّكْرِ فتعثَّر وسقطَ في الوَحْلِ، في حين أكمل فيبوس طريقه غير مُبالٍ للقاء إزميرالدا.

لحِقَ الكاهن فرولو بالنقيب فيبوس بدَل أن يساعِد أخاهُ المخْمورَ الغارِقَ في الوَحْلِ. لاحظَ فيبوس أنّ شخصًا يتبعه، فاستدار ليواجهه.

«كابتن فيبوس!» صاحَ فرولو.

«آه! أنْت تعرِفُ اسمي!» صرخ فيبوس.

«أنا لا أعْرِفُ فقط اسمك.» أكملَ فرولو. «بل أعْرِفُ أيضًا أن لديكَ مَوْعِدًا غراميًّا الليلة.»

«نعم،» أجابَ فيبوس بدَهشةٍ.

«مع امرأة اسمها...؟» سألَ فرولو.

«إزميرالدا،» تابَع فيبوس مُتبجِّحًا.

عندَ سماعِ هذا الاسم، أمسك فرولو بذراعِ فيبوس بعنفٍ وقالَ له: «أيُّها النقيب، أنتَ تكذب!». كانا على وشك التصارع، لكن فرولو أغرى فيبوس ببعض المال شرطَ أن يسمحَ له بالتأكّدِ من أنّه سيلتقي الحسناء الغجرية.

وافَق فيبوس على الصَّفقة، وسرعان ما توقّفا أمام أحد المنازل. قادتهم ربّةُ المنزل إلى إحدى الغُرَفِ. وهناك، اختبأ فرولو في خزانةٍ ضيّقة. وبعدَ حوالي خمس عشرة دقيقة، رأى

إزميرالدا بلحمها وشحمها تدخلُ الغرفةَ. فتشتَّتتْ أفكارُ فرولو وفقَدَ إحساسه بالزمان والمكان. وحينَ استعاد وَعْيَهُ وتوازُنَهُ، كانَ فيبوس وإزميرالدا جالِسين فوْقَ صُندوقٍ خشبيٍّ يتهامسان. كان وجهُ إزميرالدا مَشوبًا بالحُمْرَةِ وقد بدا عليها الخجلُ والتوتُّرُ والارتباك، بعد أن باحَتْ لفيبوس بِحُبِّها الشَّديدِ لَهُ.

عندما سمِعَ فرولو ذلِكَ، أخَذَ يَكزُّ على أسنانه مِنْ شِدَّة الغَيْظ.

كَذَبَ فيبوس عليها وقالَ لها إنّه أيضًا يُحِبُّها، ثمّ قَبّلَها قُبْلَةً طويلة. عندها لم يَعدْ فرولو قادرًا على تَحمُّلِ المَشْهَد. التفتَت إزميرالدا فرأت وَجْهًا غاضِبًا مُخيفًا فوقَها. كانَ فرولو يحْمِلُ خنْجَرًا بيده. طَعنَ فرولو النقيبَ بخنجره، فخَرَّ فيبوس على الأرض مُضَرَّجًا بدمائِهِ فيما فقدَت إزميرالدا وَعْيَها.

حينَ فتحَت إزميرالدا عَيْنَيها، كانَ يُحيط بِها عَددٌ مِنَ الضبّاط وقد علا الصُّراخُ: «السّاحِرة طَعَنَتِ النَّقيبَ!»

مُحاكَمَةُ إزميرالدا

بعد هذه الحادثة، لم يعدْ أحدٌ يعرفُ مكانَ إزميرالدا. اعترى القلقُ غرانغوار وبقية الأفّاقين والغَجَرِ والمتشرِّدين طيلة شهرٍ أو أكثر، بِسَببِ عَدَمِ مَعْرِفَةِ أيِّ خَبَرٍ عنها. ذاتَ يَوْم، بينما كان غرانغوار مارًّا أمام ساحةِ قَصْرِ العَدْلِ، رأى حَشْدًا كَبيرًا مِنَ النّاس.

تَبِعَ غرانغوار الحَشْدَ إلى داخل قاعةٍ واسعة. وهُناك قِيلَ لَهُ أنَّ امرأةً ستحاكَمُ بتهمةِ قتْلِ ضابِطٍ في سِلاحِ رُماةِ المَلِك. وأمام المحكمة، شَرَحَتْ امرأةٌ عَجُوزٌ ما حَدَث. كانَتْ هذهِ المرأةُ هِيَ صاحِبَةُ المَنْزِلِ الذي الْتَقى فيه فيبوس بإزميرالدا. بعد ذلك أُدخِلَت المُتَّهَمةُ إلى قاعَةِ المحكمة. إنّها إزميرالدا، المرأةُ المتَّهَمَةُ بالقَتْلِ والشَّعْوَذَة.

كانت إزميرالدا شاحِبَةَ اللَّونِ وقد اخْتَفَى الجَمالُ المَهيبُ عن وجهِها. لكنّها لم تكن خائفة وإنما قَلِقَةٌ على فيبوس، وما إذا كان لا يزالُ حَيًّا أم فارَقَ الحياة. وحينَ أصرَّت على أنّ المُجْرِمَ هو كاهِنٌ مقنَّعٌ، لم يصدّقْها أحَدٌ.

اقتادَ الحَرَسُ إزميرالدا إلى زَنْزانَةٍ مُظلمةٍ في أحد أبْراجِ المدينة. وهُناك جرى تعذيبها إلى أن اعترفت مُرْغمةً بِكُلِّ الاتّهاماتِ الموجَّهةِ إليها زُورًا. وعندما أُعيدت إلى المحكمةِ، قالت «نعم» حين اتُّهمت بِقتلِ النقيب فيبوس. وممّا زاد الطِّينَ بِلَّةً أنَّ العَنْزَةَ الذكيَّة دجالي بدأت تُقلِّد القاضي، مقدّمةً «إثباتات» أُخْرَى على شَعْوذات إزميرالدا. في النهايةِ، حكم القاضي على الاثنتين بالإعدام شَنْقًا في ساحةِ «دي غريف» أمام كاتدرائية نوتردام، تكفيرًا عن ذنوبهما.

الكاهنُ المُتَخَفِّي يزور إزميرالدا

كانت إزميرالدا مقيَّدةً بسلاسلَ في زنْزَانةٍ تحت ساحةِ قصر العدْل. كانَتْ تعاني من صدْمةٍ شديدةٍ، فلا هي نائِمةٌ ولا هي مُسْتيْقِظةٌ بعد أنْ فقدت معْنى الإحْساسِ بالوقْت.

ذات يوم، زارها كاهنٌ مُتخفٍّ في عباءة. هتفت إزميرالدا: «أريدُ الخروج من هنا!».

«عظيم إذن، اتبعيني!» قالَ لها الكاهِنُ.

أخذها بيَدِها، فتسمَّرَتْ إزميرالدا في مكانِها وأحسَّت بِقشْعريرةٍ تسْري في بَدَنِها.

«مَن أنْتِ؟» سألَتْه.

خلع الكاهنُ عباءتهُ، فتراجعت مذْعُورةً. إنّه الرَّجُلُ عيْنُه الّذي لاحقها وسبَّب لها كلَّ هذه التَّعاسة والعَذاب. تقَهْقرت إلى الوراء بضْع خطواتٍ، وقالت: «أنت قتلْت حبيبي فيبوس. لماذا تكرهُني؟ ماذا فعلْتُ لك؟»

«أحبُّكِ. قبل أن ألتقيكِ، كنتُ إنسانًا سعيدًا وقنوعًا،» ثُمَّ تابعَ قائلاً: «ذاتَ مرّة، رأيتُكِ ترقصين في الشارع، فلم أعُدْ أسْتَطيعُ رَفْعَ نظري عنْكِ. فقدْ تملَّكْتِ روحي. حينها كُنْتِ كالملاكِ إلى أنْ ظَهرَتِ العَنْزَةُ بِقُرونِها الذَّهبيَّةِ. عندئذٍ عرَفْتُ أنّ الشَّيْطان قد بعثكِ لِتدميري. وعندما غنَّيْتِ، لم أسْتطعْ أنْ أتزحْزح من مكاني. ثمّ، رأيتُكِ مرّةً ثانية، وسحرتِني! اكتشفت هويَّتكِ وحاولْتُ أن أخْطفكِ لكِنّي فشَلْتُ، فَبلَّغْتُ عَنْكِ. بعد ذلك، رأيتُ ذاك الفاجِرَ المدعو فيبوس وتبعتُه، وتعرفين بَقيَّة القِصَّة.»

كانَت إزميرالدا مَصْدُومةً من سماعِها كُلّ هذا الكلام. اقترحَ الكاهِنُ عليها أنْ يهْرُبا معًا حتَّى تنْجُوَ بِنفْسها. حاول أن يجُرَّها، لكنّها رفضت وراحَت تُنادي فيبوس. في النهاية انصرف الكاهِنُ عَنْها وهو يقول: «فيبوس! لقد مات بالتأكيد!»

وقعَت إزميرالدا مَغْشيَّةً عليها، ووجهُها إلى الأرض.

كوازيمودو ينقذ إزميرالدا

كانَت إزميرالدا تجهلُ أنّ فيبوس ما زالَ على قَيْدِ الحياة، بعد أن تعافى من جُرْحِهِ العَميق والتحَقَ بمُعَسْكَرِه في «كو أن بري». بعدَ شهرين، رجعَ فيبوس إلى باريس والتقى خطيبتهُ فلور وأمَّها. عاد الحبُّ يغمرُ قلبيهما وكانَ كلُّ شيءٍ بينهما على ما يُرام. وفيما كانا يتحادثانِ ويُخطّطانِ لِعُرسِهما، بدأ النَّاسَ يتجَمَّعون أمام كنيسة نوتردام.

تساءلَ فيبوس عن سَبب هذه الضجّةِ في ساحةِ الكاتدرائية.

أجابَت فلور: «اليوم، ستعترفُ الساحرةُ بذنوبِها أمَامَ الكنيسة قبلَ أنْ تُشْنق.»

خرجا إلى الشرفةِ. دُقَّتِ الأجراسُ ودخلَت عربةٌ تحملُ إزميرالدا وعنْزتها دجالي.

توقَّفتِ العَربةُ أمام بابِ الكنيسة، وتمَّ إنزال إزميرالدا منها. كانَت شفتاها البيضاوانِ تُرَدّدانِ كلِمَةً واحِدةً: «فيبوس... فيبوس.... فيبوس.»

«هل طلبْتِ المَغْفِرَة مِنَ اللهِ عنْ خطاياك؟» سألَ رئيسُ الشمامِسَة إزميرالدا. ثم أردف بأُذُنِها هامسًا:

«بإمكاني أنْ أُنْقِذَك.»

«اذْهبْ مِنْ هُنا، وإلاَّ فَضحْتُكَ!» صاحت إزميرالدا. «ماذا فعلْتَ لفيبوس؟»

«لقد مات.» قال هذه الكلمات، وهو يلتفتُ نحوَ مسْكنِ عائلة غوندلورييه– كان فيبوس واقِفًا على الشرفةِ مع سيِّدَةٍ أخْرَى. فَصُعِقَ فرولو عندَ رُؤْيةِ فيبوس حَيًّا، لكنّه حاول أن يتمالَكَ نَفْسهُ.

«حسنًا، موتي إذًا! لا أحد يريدُكِ!»

في هذه اللحظة، لمحَت إزميرالدا فيبوس فأخذتْ تُشيرُ إليه بذراعَيها. لكِنَّ فيبوس تَجاهَلها وقطَّب جَبينَهُ ودخلَ إلى البيْتِ مع فلور، رغم أنه متيقِّنٌ في نفسه من براءتها وبأنها اتُّهمتْ زُورًا وبُهتانًا.

في هذا الوقتِ، كانَ كوازيمودو يُراقِبُ كُلَّ ما يحدُثُ من برجِ الأجراس، فربط حبْلاً غليظًا بأحد أعمدة البُرْجِ ورمى طرَفهُ الحُرَّ إلى الأسفل.

عندَما أُعيدَتْ إزميرالدا إلى العربةِ، انزلَق كوازيمودو على الحبلِ وضرب الرِّجال الذين كانوا يحرسونها ثم حملها ودَخل بها مُسرعًا إلى الكاتدرائيةِ.

فتحت إزميرالدا عينيها ونظرَت إلى مُنقذِها ثم أغلقتْهما مُرتعِبةً. في داخِلِ حَرمِ الكاتدرائيَّةِ، لا يستطيعُ أحَدٌ أنْ يَلْمُسَها. فقد كانَتِ الكاتدرائيَّةُ مكانًا غيْرَ خاضِعٍ لقوانين الدولة.

عذاب دوم كلود فرولو

في هذا الوقت، لم يكن فرولو قد عرَف ما حدَث. فبعد أن أعْطى الأمْر بإعدام إزميرا
هرب بسُرْعةٍ عبْر بابٍ خاصّ. ومن هُناك نَقلهُ مَرْكبٌ إلى الضّفّةِ اليُسْرَى لنهْرِ الس
حيث راحَ يمشي على غَيْرِ هُدى في طُرُقاتِ باريس وأزِقَّتِها.

كان يَشْعُرُ بالنَّدم لِما فَعل بِحَقِّ هذِهِ الفَتاةِ البريئَةِ، فارْتعش جِسْمُهُ. فكّر بإزميرا
إنَّه يُحِبُّها لكِنَّهُ قضى عليها. لقد تسبَّب الحبُّ بِمَشاكِل جمّةٍ لقلبِه ككاهِنٍ. ظنَّ أنها شَ
وسيتعذَّبُ هو إلى الأبد. أخذ يهيمُ كالمَجْنونِ حتَّى غابَتِ الشَّمْسُ. عندها قفل عائِدًا
الملاّحِ إلى المدينةِ.

نظر إلى الكنيسة وتذكّر ما جرى ذاك النهار ثُمّ دَخل. كانَ الهُدوءُ المُخيفُ يُرْخي بِثِ
عَلى أرْوِقةِ الكنيسة، وكانَ الظَّلامُ دامِسًا.

دقَّتِ الساعةُ الثانية عشرة. فكّرَ بإزميرالدا، التي مِن المُفترَض أنّها ماتتْ وأَ
جِسْمُها باردًا بِلا حياةٍ. انعكسَ ضوْءُ القمرِ قَليلاً في الرِّواقِ، فرأى امرأةً وعنْزَةً بيْ
تتّجِهانِ نحْوهُ. فأسْرع يَخْتبِئُ تحْتَ السَّلالمِ والرُّعْبُ يكادُ يقتله. فكّر في نفْسِهِ: «لابُدَّ أ
شبحُ إزميرالدا!»

المَلْجأ

غير أنّ ما رآه، لم يكُن شبحًا، بل كان إزميرالدا بشحْمها ولحْمها.

حين استيقظت إزميرالدا، رأت كوازيمودو وتذكّرتْ أنّ فيبوس ما زال حيًّا وأنّه لم يعُدْ يُحبُّها.

سألت إزميرالدا كوازيمودو: «لماذا أنقذْتَني؟»

نظر إليها بِحُزْنٍ ثم ابْتَعَد هاربًا. لكنّه سُرْعانَ ما عادَ إليها حامِلاً بَعْض الثِّيابِ والطَّعامِ والشَّراب.

قال لها: «أنا أعْرِفُ أنّي بشِعٌ جدًّا وأنَّكِ تخافين مِنّي. لذلك لا تَنْظُري إليّ، فقط استمعي إليَّ. سَتَموتينَ إنْ خرَجْتِ من هذا المكانِ. وفي حال أردْتِ أن تمشي قليلاً، بإمكانِكِ التجوُّلُ في الكنيسة طوال الليل.»

في تلك الليلة، غرِقتْ إزميرالدا في نوْمٍ عميقٍ بعدَ أيّام مِن القلق والعذاب، فيما وقف كوازيمودو عند بابِ غُرْفَتِها يحْرُسُها. وعندما استيقظت، أشفقتْ عليه وطلبتْ إليه الدخولَ، وهي تتساءَلُ في نفْسِها كيف يمكنُ لشخصٍ مثل كوازيمودو أنْ يكُونَ رَقيقًا وحَسّاسًا إلى هذه الدرجة.

«أنا أصمُّ، يمكنك أن تحدّثيني بالإشارة.»

«لماذا أنقذتَني؟» سألَت إزميرالدا بجهدٍ مستخدمةً لُغَة الإشارات.

«لقد قدّمتِ لي الماءَ حين امتنع الكُلُّ عَنْ فِعْلِ ذلك، وأشفقْتِ عليّ حينَ كنتُ مُثبتًا على لوح العِقاب. وغفرْتِ لي بَعْدَ أنْ حاولْتُ خطْفكِ. لهذا السَّبَب، صمَّمْتُ على إنقاذك. يجبُ أن أذهب الآن. خُذي هذه الصَّفارَة وصَفِّري بِها حين تحتاجينَ إليّ. فأنا يمكنني سَماعُ صَوْتِها.»

بعْد مُرورِ بِضْعَةِ أيّام، استعادت إزميرالدا هدوءها وعافيتَها. شعرتْ بِبَعْضِ الأملِ وتلاشَتْ مَخاوِفُها. انتظَرت قُدومَ فارِسِها. ورُغْمَ أنّها كانَت تَعْرِفُ أنّهُ ما زالَ حيًّا وأنَّ عقوبة الإعدام ستنزلُ بها بتهمةِ قتلِه إلاّ أنّها لم تلمْهُ على عَدَمِ مجيئِهِ إليها. كانَ حبُّها له كبيرًا لِدَرَجَةِ أنّها كانَتْ تلومُ نَفْسَها.

في يَوْم، رآها كوازيمودو على حافةِ السَّطْحِ، تفتَحُ ذِراعَيْها وتتساءَلُ: «فيبوس، تُرى لماذا لا تأتي إليّ؟»

أحسَّ كوازيمودو بما تشْعُرُ بهِ، فسألَها إذا كانَتْ تُريدُ أنْ يَجْلِب فيبوس إليها. فرِحَتْ إزميرالدا كثيرًا وأومأت برأْسِها بالإيجابِ. كان فيبوس قد دخل لِلْتوِّ منزل غوندلورييه. انتظرَ كوازيمودو قُرْبَ الباب. وحينَ خرجَ الكابتن، ناداه كوازيمودو وقال له إنّ الغجريّة تريدُ رؤيته، لَكِنَّ فيبوس رَفَسَهُ بِقدَمِهِ ورَفَضَ مُرافقَتَهُ لأنّه كان يعتقدُ أنّها شُنِقَتْ وماتَتْ.

وعندما عادَ كوازيمودو وَحيدًا إلى الكاتدرائيَّة، خابَ ظنُّ إزميرالدا فيه وراحَت منذ ذلكَ الحين تَتَجاهَلُهُ ولا تعيرُه أيَّ اهتمامٍ. صَحيحٌ أنَّها كانَتْ تَعْرِفُ فَضْلَ كوازيمودو عليها، لكنَّ قَلْبَها كان مَع فيبوس.

دوم كلود فرولو في غرفة إزميرالدا

في هذا الوقتِ، اكتشف فرولو دَوْرَ كوازيمودو في هَرَبِ إزميرالدا. كان تعِبًا نفْسيًّا وجَسَديًّا، فلازمَ غُرْفَتَهُ أسابيعَ عديدة. وبما أنّه باتَ يعرفُ الآن مكان إزميرالدا، راحَ يراقِبُ غُرْفَتَها طيلةَ النَّهارِ. وحينَ رآها مع كوازيمودو، شَعَرَ بالغيرَةِ وأمْسَى قريبًا مِنْهُ يَحْرِمُهُ مِنَ النَّوْمِ، حتَّى باتَ الوضعُ غيرَ مُحْتَمَلٍ. وفي ليلة، فتحَ بابَ سُلَّمِ البُرْجِ ودَخَل إلى غُرْفَتِها. استيقظَتْ إزميرالدا خائفةً وصرخت: «ابتعدْ مِنْ هُنا أيُّها الشِّرِّير!» وهَجمَت عليه. تعاركا إلى أنْ وَصَلت إزميرالدا إلى الصفّارة.

وفي لحظاتٍ قليلة، كانَ الكاهنُ مرميًّا على الأرْضِ وقَدَمٌ ضَخْمَةٌ تجثم فوق صدره.

«كوازيمودو!» صَرَخَ الكاهِنُ الذي بدأت ملامحُ وجهِه تظهر مع ضوءِ القمَر. ارتجف كوازيمودو وحرّرَ الكاهنَ قائلاً: «أرجوك، اقتلْني أوّلاً ثمّ افعلْ ما تشاء.» كانَ يحملُ سكّينًا فأخذتْه إزميرالدا ورفعته عاليًا. قالَت: «أعرِفُ أنّ فيبوس لا يزال على قيدِ الحياة.»

ترك كوازيمودو فرولو يذهبُ، فانطلق هارِبًا.

«لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يمسّ شعرة من رأسها،» تمتمَ كوازيمودو وهو في طريقِه إلى غرفتِه.

خطّة غرانغوار لإنقاذ إزميرالدا

بعد هذه الحادثة، بدأ دوم كلود فرولو يبحثُ عن خطّةٍ بديلة للحصولِ على إزميرالدا. فذهب لرؤية بيارِ غرانغوار.

«كيفَ حالُك؟»

«جيّدة، يا سيّدي.»

«أينَ هي الراقصةُ الجميلة، امرأتُك؟ ألاَ تفكّر فيها».

«قليلاً ما أفعل. لديّ أمور كثيرة لأفعلها. لكنّي أشتاق أحيانًا للعنزةِ، كم كانَتْ ذكيَّةً وجَميلَةً!»

«ألم تنقذ الفتاةُ حياتَكَ؟»

«هذا صَحيحٌ.»

«في خلال أيّام قليلة، سيُقْبَضُ عليها وستُعْدَمُ شنقًا. ألا تريد أن تأخذَ مكانَها لتخلّصها؟»

«لا أفهمُ لمَاذا يجبُ أنْ أُعدمَ مكانَها. لديّ خطّة أخرَى.»

وهمَسَ في أذُنِ الكاهِنِ تفاصيلَ الخطة.

حينَ انتهى مِنَ الكلام، قالَ دوم كلود ببرودةٍ: «إذن تأجّلَ الوداعُ إلى الغدِ.»

حينَ عادَ الكاهِنُ إلى الكاتدرائية، وجدَ أخَاهُ جيهان أمامَ بابِ غرفتِه. كان جيهان بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى المالِ وإلاّ أصبحَ متشرّدًا. لكنّ رئيس الشمامسة رفَض إعطاءَهُ المالَ، فخرجَ جيهان وهو يُهدِّدُهُ بالانْضِمامِ إلى جَماعَةِ الغَجَرِ.

العصيان

حين وصل جيهان إلى ساحةِ «ميراكل»، كان كلوبان ترويفو يوزّعُ على جماعته أسلحةً من أنواع مُخْتلفة. لقد قرّر اقْتِحام نوتردام وإنْقاذ إزميرالدا، ووافقوا على انْضِمام جيهان إليهم بعد أن أكّد لهُم أنّهُ يعْرِفُ جيّدًا مداخِل الكاتدرائيةِ ومخارِجها.

عند مُنْتصفِ اللّيلِ، تَوجّه المُسَلَّحُون نحو كاتدرائيّة نوتردام، وهم يرْتدون الملابس السّوداء ويحملُون المشاعِل.

كان كوازيمودو يراقِبُ كلَّ حركةٍ في الليلِ، فتعوَّدت عيناه على الرُّؤْيةِ في الظَّلام وتمْييزِ الظلال السوداء. شاهد مجموعةً من المشرّدينَ المسلّحين يتقدّمُون نحو نوتردام. ظنَّ أنّ المشرّدين يبغون إيذاء إزميرالدا فقرّر الدِّفاع عنِ الكاتدرائيّةِ

بانتظارِ وصولِ المساعدة.

حين أُضيئَتِ المشاعِلُ، رأى كوازيمودو رجالاً ونساءً يحْمِلُون أنواعًا مُخْتلفةً من الأسْلِحةِ. وقف رجلٌ منْهُم على صخْرةٍ عاليةٍ وهتف: «إذا كانتْ كنيستُكُم مُقدّسةً، فإن شقيقتنا إزميرالدا مقدّسةٌ أيْضًا. يريدون إلقاء القبْضِ عليها وشنْقها وأنتم مُوافِقون على ذلك! أعيدوها إلينا وسنذهبُ في حالنا، وإلا فإننا سوف نُنْقِذُها وننهبُ الكنيسة. إلى الأمامِ أيُّها الرِّجالُ!»

ولِسُوءِ الحظِّ، لم يفهمْ كوازيمودو أيَّ كلمةٍ ممّا قاله الرَّجُل، وإلاّ لكانَ سلَّم إزميرالدا بدونِ أيّ تردُّد.

حاول ثلاثونَ رجلاً تَقْريبًا فتْح البابِ مستخدمين قُضْبانًا مِن الحديد وكمّاشاتِ وعتلاتٍ وأدواتٍ أخرى. تجمَّعَ الرجالُ على السُّلَّم. وفجأةً سقطتْ عليهم عارضةٌ خشبية ولحقتْها كمّيّةٌ هائلةٌ مِن الحِجارةِ. وأخيرًا، انْصَبَّ فوْقهم سيْلٌ مِنْ معْدِنِ الرَّصاصِ المَصْهورِ، فتفرَّق الجمْعُ وهَربَ الرِّجالُ بَعْد أنْ أُصيبَ مُعْظمُهُم بكُسورٍ وحُروقٍ مُخْتلفة.

كانَ هذا الدفاعُ مِنْ عملِ كوازيمودو، الذي كانَ يتنَقّلُ كخُفّاشٍ أسْود على سطْحِ الكنيسة المشتعلة.

تقهْقرتْ جُموعُ المهاجمين إلى المدْخلِ الخارجيِّ المسْقُوفِ لِمسْكنِ غوندلورييه. وهُناك عقدوا مجْلِس حَرْبٍ، في الوقت الذي كانَ فيه جيهانُ يَجُرُّ سُلّمًا باتِّجاه حائطِ الكاتدرائية. أمّا غرانغوار فكان قدْ هرب وتوارى عنِ الأنْظارِ بعدما شاهد ما حصل. فقال كلوبان: «في البدايةِ، جاء يرْجُونا، ثمّ اختفى. ها جيهان! أيْن تذْهبُ بِهذا السُّلَّم؟»

فقالَ له جيهانُ إنَّهُ يَعْرِفُ طريقًا يُؤدّي إلى داخلِ الكنيسةِ. تسلَّق السُّلَّم ودخلَ إلى الرِّواقِ الواقِعِ فوْق الجدارِ الداخليِّ للكنيسة، لكِنَّ كوازيمودو كانَ أسْرَع مِنْهُ، فقلَبَ السُّلَّم ثُمَّ انْقضَّ على جيهان وجرَّدهُ مِنْ سِلاحِهِ، ثم حَمَلَهُ وقذفَهُ باتِّجاهِ الجدارِ، فماتَ جيهان على الفوْرِ.

عِنْدما رأتِ الجُمُوعُ هذا المشْهدَ، صرخت برُعْبٍ «فلنَثْأرْ! انهبوا الكاتدرائيَّة!»

أوامر الملك

وصلَ الخبرُ إلى الملِك لويس الحادي عشر أنّ الشعب يثُورُ ضِدَّهُ.

وعندما سأل عنِ السَّبَبِ، أُخْبِرَ بِقِصَّةِ إزميرالدا وتهمتِها واختبائها في كنيسة نوتردام، كما وصل إليه خبر مُحاصرةِ الكاتدرائية مِنْ قِبَل جُموعِ الغوْغاءِ المتُشردين.

غضِبَ الملكُ وأمر بِقمْعِ العِصيان فوْرًا.

«اقتلوهم! لا تترُكوا أحدًا يفرّ!»

هُنا سأل قائدُ الحرسِ الملِك: «وماذا عنِ الساحرةِ؟»

«اقتُلوهَا أيْضًا!»

«لكنّها في الكنيسةِ.»

«حتَّى ولو كانتْ في الكنيسةِ، ينبغي إعدامُها!»

في هذا الوقْتِ، التَقَى غرانغوار بدوم كلود فرولو أمام بوّابةِ «بودوييه»، كما هُوَ مُخطَّطٌ له. كانَ فرولو يرتدي معطفًا أسودَ طويلاً وتوجَّه الاثنان إلى نوتردام، بعد أنْ جَهَّزا مرْكَبًا أيْضًا لِلْهرب.

في نوتردام، وصل الكابْتِن شاتوبيرْز مع حرَسِ الملِك. قاوَم الغجرُ بِبسالةٍ، فيما كانَ كوازيمودو يُدافع عن الكاتدرائيةِ مِن الداخل. كانَتِ المعركةُ قاسيةً اضطرَّ في نهايتِها الغجرُ إلى الانسحابِ، فعادَ كوازيمودو إلى غُرْفَةِ إزميرالدا لكِنه لَمْ يَجِدْ أحدًا في الغُرْفةِ.

ومِنَ الحُبِّ ما قتل

تساءل كوازيمودو عَنْ مكانِ إزميرالدا. لَمْ يعْلَمْ أنّ إزميرالدا كانتْ قد استيقظتْ على أصْواتِ الغجر ونظرتْ إلى الخارجِ فخافت وعادتْ مُسْرِعةً إلى سريرِها وهِيَ ترْتجِفُ رُعبًا مِنَ الضجيجِ ومشاهِدِ العُنْفِ.

في تِلْكَ اللَّحْظةِ، سمِعتْ شخْصًا يقْتربُ مِنْها. إنّهُ بيار غرانْغوار يرافِقُهُ شخْصٌ آخرُ يرتدِي مِعْطفًا أسْود. هذا الشَّخْصُ لنْ يتْرُكها ترْتاحُ أبدًا. أمّا دجالي فركضتْ مُسْرِعةً إلى غرانغوارِ الَّذي راحَ يُربّتُ على ظهْرِها. أخْبرَ غرانغوار إزميرالدا أنّهُما جاءا لإنقاذِها، فذهبتْ معَهُما والعَنْزَةُ تمْشي وراءَهُم. وعندما وصلوا إلى ضفَّةِ النَّهْرِ استقلّوا مَرْكبًا راسيًا. كانَ الشَّخْصُ الَّذي يرْتدي السَّواد يُجدِّفُ بِصمْتٍ. وحين اقتربوا مِن الشَّاطِئِ، أخذ صوْتُ الضَّجيجِ يرْتفِعُ أكْثر فأكْثر:

«الموْتُ للغجريّة! الموْتُ للسَّاحرة الشِّريرة!»

وَصل المَرْكبُ إلى الضَّفَّةِ. عرفَ غرانغوار أنّه غيْرُ قادِرٍ على إنقاذِ الفتاة والعنْزة معًا. فأخذ دجالي وتسلَّل بِهدوءٍ بعيدًا عنِ الجمْعِ. أمّا إزميرالدا فجفلتْ حين حاولَ الرَّجُلُ المقنَّعُ إمْساك يدِها. اقْشعرَّ بدَنُها عِنْدما وَجدتْ نفْسها وَحيدةً مع هذا الرجُل. كانَ يجرُّها ببُطءٍ لكِنْ بفظاظةٍ باتِّجاهِ ساحةِ «غريف». لم تكفَّ عنْ سُؤالِه: «مَنْ أنْت؟»

لزِمَ الرَّجُلُ الصَّمت إلى أنْ وصلا إلى قُرْبِ السَّاحةِ. أصْبحتِ المِشْنقةُ مرئيةً. عِنْدها نزَعَ الرَّجُلُ قلنْسوتَهُ – إنَّهُ الكاهِنُ!

«عليْكِ أنْ تختاري بيني وبيْنَ هذِه!» قالَ الكاهِنُ وهُوَ يُشيرُ إلى المِشْنقةِ.

اخْتارتْ إزميرالدا المِشْنقة: «إنّها أقلُّ فظاعةً مِنْكَ!»

دَمعت عينا الكاهِنِ الكسير النَّفْسِ.

«أحبُّك إزميرالدا. أنتِ فتاةٌ جميلةٌ، ولطِيفةٌ ورقيقةٌ مع الجَميع، لَكِنَّكِ تكْرهِينَني لماذا. قولي لي كَلِمةً ناعِمةً واحِدة وأنا أُنْقِذُ حياتَك!»

«أَنْتَ مُجْرِمٌ قاتِلٌ!»

عِنْدئذٍ، أخَذَ الكاهِنُ يجرُّ إزميرالدا نحوَ «حُفْرةِ الجرذان» حيثُ تعيشُ الرَّاهِبةُ الناسِكة. وعندما وَصَلَ إليها، هَتَفَ: «غودول، هَذِهِ هِيَ الغَجَرِيّة... انْتقمي مِنْها ريثما أُحْضِرُ الحَرَسَ!»

أحسَّت إزميرالدا بِيَدٍ خَشِنَةٍ تُمْسِكُ بِها بِشدَّةٍ، فيمَا رَكَضَ الكاهِنُ لإحضار الحَرَسِ لِلْقَبْضِ عَلى إزميرالدا.

لقاء الأمّ وابنتها

أخذَتْ إزميرالدا تتوسَّلُ الرَّاهبةَ: «أرْجُوكِ اتركيني أذْهب، مَاذا فعلْتُ لكِ؟»

«لقَدْ سَرقَتْ الغَجَريَّاتُ ابْنَتي. رُدّي لي ابنتي آنياس وأنا سأطْلِقُ سراحَكِ. هذا كلّ ما بَقيَ لي مِنْها،» تلفَّظَتْ بهذِهِ الكلماتِ وَهِيَ تُظْهِرُ فَرْدَةَ حِذاءٍ زَهريَّةَ اللَّونِ. عندئذٍ، تَسمَّرتْ إزميرالدا في مَكانِها مصْدومَةً. وبيَدِها الطليقة، فَتَحت حَقيبةً مِنَ المُخْمِلِ الأخضَرِ وأخْرجت الفَرْدَةَ الثانيةَ مِنَ الحِذاءِ الزَّهْريِّ.

صاحَتِ الرَّاهبَةُ: «ابْنتي!»

فَصَرخَتْ إزميرالدا بدَوْرِها: «أُمّي!»

تناولَتِ النَّاسكَةُ حَجَرًا كَبيرًا وكَسرَتْ زُجَاجَ النَافِذَة وسَحَبَتْ إزميرالدا إلى الدَّاخِلِ، وأخذَتْها بيْنَ ذِراعَيْها وقبّلَتْها.

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، سَمِعَتا حَوافِرَ الخُيولُ تقْتربُ، فهَتَفَتْ إزميرالدا: «أنقذيني يا أُمّي!»

حاوَلَتِ الرَّاهبةُ أنْ تُخبِّئَها. قالَ الكابتن: «قيل لي إنّ السَّاحِرة مَوْجُودَةٌ هُنا.»

«كانَتْ مَعي، لكِنَّها عَضَّتْني مِنْ يَدي وهَربَتْ.»

لاحَظَ أحدُ الجُنُودِ الزُّجاجَ المَكْسورَ فكَرَّرَ السُّؤالَ عَنِ الفَتاةِ، فيما ذكَّرَ جِنْديٌّ آخرُ الكابْتِنَ أنّ «غودول» مَشْهورَةٌ بكُرْهِها لِلْغَجَرِ وأنّهُ يسْتَحيلُ أنْ تَحمِيَ إزميرالدا. وحينَ قالَتِ الرَّاهبَةُ إنَّها مُسْتَعِدَّةٌ أنْ تُشْنَقَ بَدلاً مِنْها إذا كانَتْ تَكْذِبُ، تَرَكَها الجُنودُ مُعْتقدِين أنَّها مَجْنُونةٌ.

ولِسُوءِ الحَظِّ، مرَّ فيبوس في هَذِهِ اللَّحْظَةِ بالْقُرْبِ مِنْ «حُفْرَةِ الجِرْذانِ»، فهُرِعَتْ إزميرالدا إلى النافذةِ وهِيَ تَصْرَخُ: «فيبوس! خلِّصْني!»

شَدَّتْها أُمُّها إلى الوراءِ لَكِنَّ الكابْتِنَ كان قَدْ سَمِعَ صَوْتَها ولمَحَها. فحطَّم الجُنودُ حائطَ الغُرْفَةِ وأمْسَكوا بإزميرالدا وأُمِّها.

موت إزميرالدا

في اليَوْمِ التَّالي، أشْرقَتِ الشَّمْسُ باكِرًا. وفي أعْلى بُرْجٍ في كَنيسةِ نوتردام، وَقفَ شَخْصانِ يرْتديانِ السَّواد وهُما ينْظُران إلى ساحة «غريف». كانَ أحدُهما كوازيمودو.

حينَ اكتشف كوازيمودو أنّ إزميرالدا غَيْرُ مَوْجُودةٍ في غُرْفتِها، بحَثَ عَنْها في الكاتدرائيةِ كلّها فلَم يعْثُرْ على أيِّ أثرٍ لها. تساءَلَ إنْ كانَ أحَدٌ قد خطفَها، فعادتْ إلى ذِهْنِهِ صُورَةُ الكاهِن. تذكَّرَ أنَّ الكاهِنَ وحْدهُ لديْهِ مِفْتاحُ بابِ السَّلالِم، وأنَّهُ دخل مَرَّةً إلى غُرْفَةِ إزميرالدا. أدْرَكَ كوازيمودو أخيرًا ما فَعَلَهُ الكاهِنُ رئيسُ الشَّمامِسَةِ، فتَملَّكَهُ غضَبٌ شديدٌ.

ارْتفعَتِ الشَّمْسُ أكْثر في السَّماءِ. نظر كوازيمودو إلى الخارِجِ، فرأى الكاهِنَ رئيسَ الشمامسةِ في أعْلى طابقٍ مِن الكاتدرائيةِ وهُو يتوجَّهُ نَحْوَ البُرْجِ الشَّماليِّ، فتبِعهُ.

كانَ الكاهِنُ يَنْظُرُ بتركيز إلى الأسْفلِ، حَيْثُ تَقَعُ ساحَةُ غريف، فلم يَسْمعْ خطواتِ كوازيمودو وهو قادِمٌ مِنْ ورائِهِ. نَظر كوازيمودو إلى الأسْفلِ فرأى سُلَّمًا مَوْضُوعًا على منصَّةِ المَشْنَقَةِ؛ وكان هُناكَ رجُلٌ يَجُرُّ فتاةً ترْتدي ثَوْبًا أبْيَض. أدْخل الرَّجُلُ عُرْوَةَ حَبْلٍ غليظٍ حوْلَ رقْبَةِ الفتاةِ. كانتِ الفَتاةُ إزميرالدا!

ركعَ الكاهِنُ على رُكْبتيْهِ فوْقَ الدرابزين ليُشاهِدَ بِشكلٍ أفْضل عمليَّةَ شَنْقِ إزميرالدا. وعِنْدما تدلَّتِ الفَتاةُ البريئةُ مِنْ على حبْلِ المَشْنقةِ، صَدرتْ عَنِ الكاهِنِ ضَحْكَةٌ شَيْطانيَّةٌ. عِنْدما سَمِعَ كوازيمودو هذِهِ الضَّحْكَةَ الشِّرِّيرَةَ، اشْتعَلَ غضَبًا وقامَ بِدفْعِ الكاهِنِ مِنْ فوْقِ حافَّةِ الدرابزين فسَقَط مِنْ أعْلى الكاتدرائيَّةِ إلى الأرْضِ ومات على الفوْرِ.

تطلَّعَ كوازيمودو إلى المَشْنقةِ وأخذ يبْكي بِحرارةٍ عِنْدَما رأى إزميرالدا مُتدلِّيةً على حبْلِ المشْنقةِ وفرولو مُمدَّدًا على الأرْضِ جثَّةً هامِدَةً. فصاحَ بِصَوْتٍ مُتهدِّجٍ: «كلُّ ما أحْبَبْتُهُ يوْمًا مات وتلاشى!»

ومُنْذُ ذلكَ الوقْت، لَمْ يَعُدْ أحدٌ يرى كوازيمودو.

أمّا بيار غرانغوار فعاد إلى عَمَلِهِ، حَيْثُ بَرعَ في كِتابَةِ المسْرحيَّاتِ التراجيديَّةِ، فيما تزوَّجَ «فيبوس دي شاتوبيرز» مِنْ خَطيبتِهِ الثَّريَّةِ فلور.

قدر كوازيمودو

بَعْدَ شَنْقِ إزميرالدا، نُقِلَ جُثْمانُها إلى قَبْوٍ تَحْتَ الأَرْضِ في «مونفوكون».

بَعْدَ سَنَتَيْن، فَتَحَ رِجالُ القَبْوَ، فَوَجَدوا هَيْكَلَيْنِ عَظْمِيّينِ يُعانِقُ أَحَدُهُما الآخَرَ. كانَ الأَوَّلُ يَعودُ إلى امْرأةٍ تَلُفُّ عُنُقَها قِلادَةٌ مِنَ الخَرَزِ الأَخْضَرِ، ويُرَجَّحُ أَنَّها ماتَتْ مَشْنُوقَةً. أَمّا الهَيْكَلُ الثّاني، فكانَ يَعودُ على الأَغْلَبِ إلى رَجُلٍ أَحْدَبَ. ويَبْدُو أَنَّ هَذا الرَّجُلَ لَمْ يَمُتْ شَنْقًا، وإنَّما نَزَلَ إلى القَبْوِ لِيَدْفِنَ نَفْسَهُ حَيًّا إلى جانِبِ المَرْأةِ المَشْنُوقَةِ.

وعِنْدما حاوَلَ الرِّجالُ فَصْلَ الهَيْكَلَيْنِ أَحَدُهُما عَنِ الآخَرِ، تَفَتَّتا إلى غُبارٍ ناعِمٍ. وهَكَذا، حَقَّقَ كوازيمودو في مَماتِهِ ما كانَ يَحْلُمُ بِهِ في حَياتِهِ، هو أَنْ يَتَّحِدَ إلى الأَبَدِ مَعَ إزميرالدا.

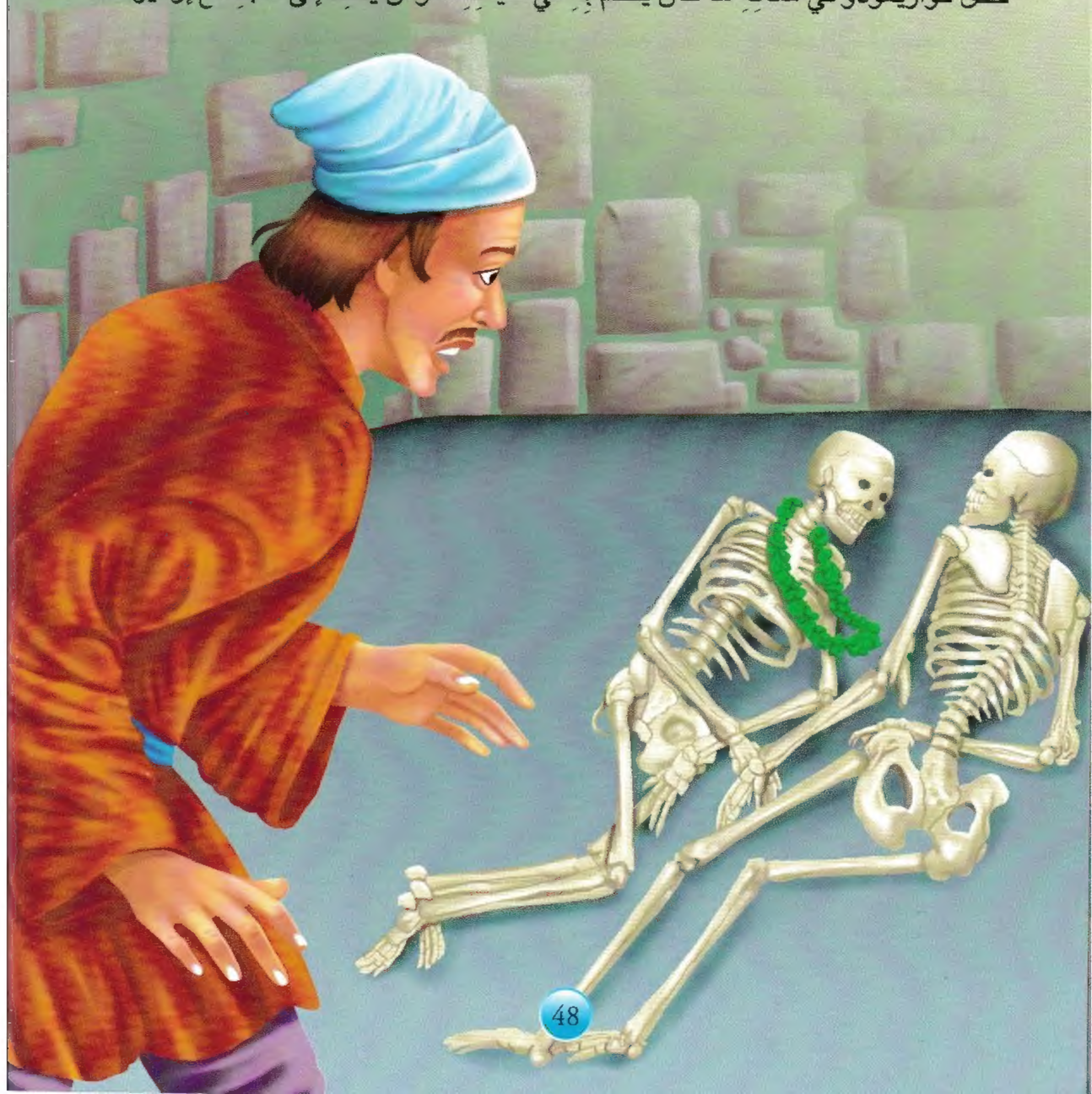

أحدب نوتردام

... في هَذِهِ اللَّحْظَةِ، كانَ يَمُرُّ بالصُدْفَةِ نقيبٌ في سِلاحِ الرُماةِ التَّابِعِ مُباشرةً للملك عَلى رَأْسِ دَوْريّةٍ، فَسَمِعَ صُراخَها. فَهَرَعَ إلى المكان وخَلَّصَ الفتاةَ مِنْ بَيْنِ ذِراعَي كوازيمودو. قاوَمَ كوازيمودو الجنودَ بِضَراوةٍ لَكِنْ في النِّهاية أَمْسَكوا بِهِ. أَمّا رَفيقُهُ فَقَدْ تَوارى عَنِ الأَنْظارِ.

أَمْعَنَتِ الحَسْناءُ الغَجَريّةُ النَّظَرَ في وَجْهِ مُنْقِذِها النَّقيبِ ثُمَّ سألتْه بِنعومةٍ عن اسْمِهِ. وفيما كانَ يُجيبُها: «النقيب فيبوس دي شاتوبيرز»...

صدر من هذه السلسلة:

- كنوز الملك سليمان
- رحلة إلى باطن الأرض
- عائلة روبنسون السويسريّة
- عشرون ألف فرسخ تحت الماء
- أوليفر تويست
- أحدب نوتردام
- أطفال سكّة الحديد
- الفرسان الثلاثة
- ديفيد كوبرفيلد
- الحديقة السريّة
- توم سوير
- كتاب الأدغال

ISBN: 978-9953-37-940-1

تم تصنيف هذه القصة وفق معايير «عربي 21» لتصنيف كتب أدب الأطفال العربي، وقد صنف مستوى «ص»، «متقن أدنى» السنة السابعة والثامنة

ص

أكاديميا